﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ [الجمعة: 6 - 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الأدلَّـةُ العقليَّةُ المُـلـزِمـةُ إحـدى وسـائـلِ الـذِّكـرِ الحكيم في فَضْحِ مَزاعِمِ الخُصوم

أخبَرَتِ الآيةُ السّابقةُ عن حال اليهود وصِفتهم في عدم انتفاعِهم بنور التَّوراة وهُداها؛ حيث لَم يَعْمَلوا بما كلَّفهم الله تعالى فيها، وذكرتْ أنَّ مَثَلهم في ذلك كمثل الحمار حالَ شقائه بحَمل أشرف محمولٍ وهو أسفار العلم، وجاءت الآياتُ هنا بذِكرِ واحدٍ من أكاذيبهم الَّتي بها استحقّوا بها ذلك الوصفَ المُهين، وأكَّدتْ دَحْضَه بالدَّليل العقليِّ المُلزِم على كذبهم في هذا الزَّعم، وفي غيره من مزاعمِهم المغلوطةِ إجمالًا.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَادُوٓاْ﴾: الهودُ: اليهود. وهادوا يَهودون هَوْدًا، وسُمّوا اليهودَ اشتقاقًا مِن هادوا؛ أي: تابوا. ويُقال: نُسبوا إلى يهوذا، وهو أكبرُ ولدِ يعقوبَ عليه السلام، وحوِّلَتِ الذّالُ إلى الدّال حين عُرِّبت. والتَّهويد: شبهُ الدَّبيب في المَشْي، والسُّكونُ في الكلام، والهَوادةُ: البقيَّةُ من القوم يُرجى بها صلاحُهم[1]. فالمقصودُ بالَّذين ﴿هَادُوٓاْ﴾ هنا: أبناءُ يهوذا بنِ يعقوبَ عليه السلام.

2) ﴿زَعَمْتُمْ﴾: الزَّعْمُ - مُثَلَّثةً - : القَولُ، زَعَم زَعْمًا وزُعْمًا وزِعْمًا: قالَ، ويُقال: الضَّمُّ لُغَةُ بَني تَميم، والفَتْحُ لُغَة الحِجاز. قالَ اللَّيْث: سَمِعْتُ أهلَ العَرَبيّة يَقولونَ: إذا قيل: ذَكَر فلانٌ كَذا وكَذا

(1) الخليل، العين: (هود).

فإنَّما يُقال ذلك لأمرٍ يُسْتَيْقَنُ أنَّه حَقٌّ، وإذا شُكَّ فيه فلم يُدْرَ لَعَلَّه كَذِبٌ أو باطِل قيل: زَعَم فلان. وقالَ ابنُ خالَوَيْه: الزَّعْمُ يُسْتَعْمل فيما يُذَمَّ كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ﴾ [التغابن: 7]، حَتَّى قالَ بعضُ المُفسِّرين: الزَّعْمُ أصلُه الكَذِب[1]. فمعنى ﴿زَعَمْتُمْ﴾ هنا: قُلتُم كذِبًا وادَّعيتُم ذلك.

3) ﴿أَوْلِيَآءُ﴾: الوَلاءُ والتَّوالي: أن يَحْصُلَ شيئان فصاعدًا حصولًا ليس بينهما ما ليس منهما، ويستعار ذلك للقرب من حيث المكان، ومن حيث النّسبة، ومن حيث الدّين، ومن حيث الصّداقة والنُّصرة والاعتقاد. والوِلايَةُ: النُّصْرةُ، والوَلايَةُ: تَوَلّي الأمرِ، والوَلِيُّ والمَوْلَى يستعملان في ذلك، كلُّ واحدٍ منهما يقال في معنى الفاعل؛ أي: الموالي، وفي معنى المفعول؛ أي: الموالَى[2]. فمعنى ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ هنا: أحبابُهُ الأقربون، واللّه تعالى أعلم.

4) ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾: المنى: التّقدير. يقال: مَنَى لك المانِي؛ أي: قدَّرَ لك المقدِّر، ومنه: المَنا الَّذي يوزن به فيما قيل، والمَنِيُّ للَّذي قُدِّرَ به الحيوانات. قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧﴾ [القيامة: 37]، ﴿مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦﴾ [النّجم: 46]؛ أي: تُقدِّرُ بالعزَّةِ الإلهيَّة ما لم يكن منه، ومنه: المَنيَّة، وهو الأجلُ المقدَّرُ للحيوان، وجمعه: مَنايا.

والتَّمَنّي: تقديرُ شيءٍ في النّفس وتصويرُه فيها، وذلك قد يكون عن تخمينٍ وظنّ، ويكون عن رَويَّةٍ وبناء على أصل، لكنْ لمّا كان أكثره عن تخمينٍ صار الكذبُ له أملكَ، فأكثرُ التَّمنّي تصوُّرُ ما لا حقيقةَ له. قال تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًا﴾. والأُمْنيَّةُ: الصّورةُ الحاصلة في النّفس من تمنّي الشَّيء[3]، فمعنى ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ هنا: اطلُبوه وتطلَّعوا إلى نزوله بكم.

5) ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ﴾: القَدَمُ: قَدَمُ الرِّجل، وجمعه أقْدامٌ، قال تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ۝١١﴾ [الأنفال: 11]، وبه اعتُبِر التَّقدُّم والتّأخُّر، وقَدَمْتُ فلانًا أقْدُمُهُ: إذا تَقَدَّمْتَهُ، وقَدَّمْتُ به: أعلمتُهُ قبلَ وقت الحاجة إلى أن يعملَهُ، ومنه: ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ۝٢٨﴾ [ق: 28]، وقُدّامُ بإزاء خَلْف[4]. فمعنى ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ﴾: اكتسبوا من أقوالٍ وأعمال وأفعال، وسبَقَتْهم إلى الآخرة ليُجازَوا بها هنالك.

(1) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (زعم).
(2) الراغب، المفردات: (ولي).
(3) الراغب، المفردات: (منى).
(4) الراغب، المفردات: (قدم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

أقِمْ - يا رسولَ الله - الحُجَّةَ المُفْحِمَةَ لليهود على كَذِبِهم، مُدَلِّلًا بالدَّليل العقليِّ المُلْزِم لهم، المؤكِّد لِكَذِبِهم، الفاضحِ لِمَزاعِمِهم، قائلًا لهم: إن كنتم حقًّا صادقين في أنَّكم بأعمالكم الصّالحات أولياءُ لله تعالى من دون النّاس، وأنَّكم أبناءُ الله تعالى وأحبّاؤُه، وأنَّ الدّار الآخرة خالصةٌ لكم من دون النّاس فأثْبِتوا صدقَكم في ذلك بأنْ تتمنَّوا الموتَ، وتطلبوه من الله تعالى؛ فإنَّ الحبيبَ يَرْنو إلى لقاء حبيبه، والوليَّ يسارع إلى جوار وليِّه، وإنْ تطلبوا الموتَ يَنزِلْ بكم على الفور، فترتاحوا مِن هموم دارِ الأغيار والأكدار، وتَأْوون إلى دار النَّعيم والكرامة والاستقرار.

أكاذيبُ اليهودِ فظيعةٌ، لذا يخشَون الموت؛ وهم أحرصُ النّاسِ على حياة

لكنِ اعلمْ - يا رسول الله - أنَّ اليهودَ كاذبون، وأنَّهم لن يَجرُؤوا على تَمَنّي الموت، ولن يُقدِموا على طلبه من الله تعالى؛ لأنَّهم يعلمون أنَّ ما عطَّلوه من أوامره تعالى الواجبة، وما قدَّموه لأنفسهم من أعمالهم الفاسدةِ ومعاصيهم الموبقة، وما ارتكبوه في حقِّ أنفسهم وحقِّ العباد والبلاد من المظالم الآثمةِ كلُّ ذلك ينتظرُهم عقابُه، واللهُ تعالى عليم بِظُلمِهم وظُلم الظّالمين جميعًا، ولن يُفلِتوا مِن عذابه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ جملةِ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عمّا قبلها:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ عن جملةِ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ الآية؛ لِما بينهما مِن كمالِ الانقطاع، إذ الأولى إخبارٌ، والثّانيةُ إنشاءٌ طلبيٌّ بالأمرِ ﴿قُلْ﴾؛ فلمّا اختلف مَهْيَعُ الكلام فُصِل بينهما.

الفصلُ اللَّفظيُّ بينَ الجُملِ القرآنيَّةِ تحتَهُ وصلٌ دلاليٌّ وثيقٌ بينَ معانيها

غيرَ أنَّ مَعْنَيَيْهِما متَّصلان بخيطٍ دلاليٍّ جليٍّ؛ حيث يَجمَعُ بينَ معنييهما الحديثُ عن اليهود؛ بسَوْقِ الأولى مَثَلًا لَهُم في تعطيلِ ما كُلِّفوه مع جليلِ قدرِهِ وجميلِ نفعِه، وتحقيقِ الثّانية عليهم ذلك المَثَلَ بسَوْقِ دليلٍ عقليٍّ فاضحٍ لأكاذيبِهم المتكاثرة.

دلالةُ القولِ في جملةِ ﴿قُلْ﴾:

الذِّكرُ الحكيم يوَجِّهُ الدُّعاةَ نحوَ الأدلَّةِ العقليَّةِ في إلزامِ الخُصوم

في النَّصِّ على القولِ في جملة ﴿قُلْ﴾ توجيهٌ للنَّبيِّ ﷺ، وللدُّعاةِ من بعده نحوَ اتِّخاذ الأدلَّة العقليَّة المفحِمة لإلزام الخصوم من الكفّار عامَّةً واليهودِ خاصَّةً، وإلى ذلك ففي تزويدِهِ ﷺ بالحُجج دعمٌ لنبوَّتِهِ؛ وذلك بأنْ يَصدُرَ القولُ لهم مِنه هو ﷺ؛ لأنَّهم إنَّما كذَّبوه هو، وإلّا لتوجَّهَ الخطابُ منه ﷺ إليهم مباشرةً، فقيل: يا أيُّها الَّذين هادوا إن زعمتم ذلك فتمنَّوا الموت.

مَرجِعُ ضميرِ الخطابِ في ﴿قُلْ﴾:

أوامرُ اللهِ تعالى للرَّسولِ ﷺ أوامرُ لأُمَّتِه ما لم تكنْ له خصوصًا

المخاطبُ بالأمرِ ﴿قُلْ﴾ هو الرَّسولُ ﷺ؛ لأنَّه المُتلقّي عن الله تعالى من هذه الأمة، والمعنى: "قلْ - يا محمَّدُ - لليهودِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾"[1].

ثمَّ يصلُحُ الأمرُ بـ﴿قُلْ﴾ لكلِّ مَن يتأتّى له أنْ يقولَ هذا القولَ لليهود من الدُّعاة إلى الله تعالى؛ إذ ليس فيه خصوصيَّةٌ من خصوصيّاتِ النُّبوَّة، كما أنَّ ديدنَ اليهود في كلِّ زمانٍ ومكان؛ مِن دَعْوى الولاية لله تعالى من دون النّاس، ومِن ظُلمِ العباد، والإفساد في البلادِ يُؤَهِّلُهم لهذا القولِ الفاضح.

غَرَضُ الأمرِ في جملةِ ﴿قُلْ﴾:

الرَّسولُ ﷺ يُنَفِّذُ أوامرَ الله تعالى كما هي

والأمرُ في جملةِ ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ للاهتمامِ بشأن التَّحدّي مِن قِبَلِ الرَّسول ﷺ لهم، ولبيانِ أنَّه أمرٌ من الله تعالى، وليس للرَّسول ﷺ سوى التَّنفيذ[2].

و"قد أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ أن يقولَ لهم ذلك إظهارًا لكذبهم؛ وإنَّهم كانوا يقولون: نحن أبناءُ الله وأحبّاؤُه، ويزعُمون أنَّه لا يدخلُ الجنَّةَ إلّا مَن كان هودًا، إلى غيرِ ذلك من سائرِ دعاواهُمُ الكاذبة"[3].

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 22/ 635.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 384.
(3) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10/ 1415.

نكتةُ النِّداء بـ(يا):

في النِّداءِ بأداةِ البعيد (يا) في مَقامِ التَّحدّي إمعانٌ فيه وفَضحٌ لهزيمةِ المُنادَى

وفي توجيهِهِ ﷺ إلى نداء اليهود في هذا المقام بـ(يا) الَّتي يُنادَى بها البعيدُ - وهم أمامَه وحَوالَيْه - نداءٌ على كذبهم في زعمهم أنَّهم أولياءُ للّه تعالى من دون النّاس، وإفشاءٌ لظُلمِهم أنفسَهم، وظلمِهم العبادَ، وفضْحٌ لهزيمتِهم أمامَ أنفسهم، وأمامَ النّاس جميعًا في هذه المباهلةِ الحازمة.

روي أنَّه لمّا ظَهَر رسولُ اللّه صلّى اللّه تعالى عليه وسلَّم كتَبَتْ يهودُ المدينةِ ليهودِ خيبرَ: إنِ اتَّبَعْتُم محمَّدًا أطَعْناه، وإنْ خالفتُموه خالفناه. فقالوا: نحنُ أبناءُ خليلِ الرَّحمن، ومِنّا عُزَيرٌ ابنُ اللّهِ والأنبياءُ، ومَتَى كانتِ النُّبوَّةُ في العرب؟! نحنُ أحقُّ بها من محمَّدٍ، ولا سبيلَ إلى اتِّباعِهِ، فنزلت: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ الآيةَ[1].

معنى (أيٌّ)، وأثرُ (الهاء) في صيغةِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾:

صيغةُ (يا أيُّها) ممتلئةٌ كثيفةُ الدَّلالة، تَحْفِزُ على معرفةِ المُنادى المقصودِ بعدَها

(أيٌّ) في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ "منادًى، نكِرةٌ مقصودةٌ، مبنيٌّ على الضَّمِّ في محلِّ نصبٍ"[2]، وإبهامُهُ باعثٌ على استثارةِ الشَّوقِ لتخصيصِهِ بذِكر البدلِ أو عطفِ البيان الَّذي يأتي بعده، و(الهاء) للتَّنبيه، فتقديمُها بين يدَي المنادَى المقصود تهيئةٌ للمُتلقّي، وحَفْزٌ لِهمَّته على معرفةِ ذلك المنادَى الحقيقيِّ الآتي ذِكرُه وراءَ تلك الصّيغةِ العامرة.

علَّةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الاسمُ الموصولُ عُنصُرُ تشويقٍ إلى معرفةِ صِلَتِه، وفي ذلك تشويقٌ مضاعفٌ لمعرفةِ المقصودِ بالخِطاب

وإلى ما سبق من مُثيرات الشَّوق في صيغةِ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا﴾ يأتي الاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ عُنْصرَ تشويقٍ آخر؛ لأنَّه فقيرُ الدَّلالة يَطلُبُ ما يَسُدُّ فَقْرَ دلالته، فإذا جاءت جملة الصِّلةِ ﴿هَادُوٓاْ﴾ صارتْ هي الأُخرى عُنصرَ تشويقٍ تَطلُبُ ما وراءها مِن فحوى الخطاب الَّذي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.
(2) صافي، الجدول في إعراب القرآن: 14/ 246.

طال الشَّوقُ إلى معرفته؛ فيكونُ الوقوفُ عليه في لذَّةِ ما حُصِّلَ بعدَ معاناة.

وإلى ذلك فوراءَ الموصولِ هنا لطيفةٌ أُخرى؛ هي التَّعريض بكذب اليهود، "كأنَّه قيل: يا أيُّها الَّذين ادَّعَوا أنَّهم رجعوا إلى الله وتابوا إليه، إنْ زعمتُم أنَّكم أولياء الله - لأنَّ التّائب إلى الله وليُّ الله - فتَمَنَّوا لقاءَ الله؛ فإنَّ الحبيب لا يكرهُ لقاء حبيبه، ولقاءُ اللهِ الموتُ"[1].

الكذِبُ مِن أهلِ الدّيانةِ الإلهيَّةِ الصَّحيحةِ مُستبعَد

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿هَادُوٓاْ﴾، وإشارةُ المضيِّ فيه:

﴿ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ "هم اليهودُ، وأصلُهُ مِن الهَوْد[2]، وهو الرُّجوع برفقٍ، وسُمّي اليهودُ يهودًا لأنَّهم رجعوا إلى الله تائبين بعدَ أنْ عبدوا العجلَ، كما جاء في قوله تعالى على لسان موسى: ﴿۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف: 156]، ولذلك عُبِّرَ هنا بصيغةِ الماضي ﴿هَادُوٓاْ﴾، ثمَّ لَزِمَهم هذا الاسمُ، ولعنهم الله وهم معروفون به"[3]، و"يقال: هادَ فلانٌ وتهوَّدَ إذا دخل في اليهودية؛ نسبةً إلى (يهوذا) أحدِ أبناء يعقوبَ عليه السلام"[4].

وفي اصطفاءِ صفةِ الهَوْدِ - أي: التَّوبةِ والرُّجوع - في ندائهم هنا استدراجٌ لهم نحوَ مباشَرةِ المُباهلة، إمعانًا في إذلالهم وإخزائِهم؛ لأنَّهم لن يفعلوا، ولو كانوا فعلًا هودًا تائبين فلن يخافوا سوءَ المصير، ولَطَلبوا الموتَ تعجيلًا إلى الفوز بالدّار الآخرةِ الخالصةِ لهم من دون النّاس، بحسبِ زعمهم الكاذب.

كذلك في اصطفاءِ وصف (الهَوْدِ) إزراءٌ عليهم؛ إذ الكذِبُ من

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 412.
(2) أصلُ الهَوْدِ: الرُّجوع برفق، وبه سمّيت اليهود، وكان اسمَ مدحٍ قبل نسخِ شريعتهم، وبعده صارَ اسمَ ذمٍّ لازمًا لهم أبدًا يتّسِمُون به إلى الأبد، يُنظر: درويش، إعراب القرآن وبيانه: 3/ 465.
(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 14/ 948.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 383.

أهلِ الدّيانة الإلهيَّة الصَّحيحةِ مُستبعَدٌ؛ فكيف يكذبون وهم من أهل التَّوبة والرُّجوع عن المعصية؟!.

نكتةُ التَّصريح بذكرِ اليهود بعدَ الإلماحِ إليهم:

في التَّصريحِ بذكرِ اليهود بعدَ الإلماحِ إليهم

وفي التَّصريح بذكرِ اليهود في جملةِ النِّداء ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ بعدَ الإلماحِ إليهم في جملةِ التَّشبيهِ ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ تحديدٌ لهم، وتصريحٌ بذكرِهم؛ مبالَغةً في فَضْحِهم ومُجابهتِهم بإثباتِ كذبِهم في دَعْواهُم أنَّهم ﴿أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، وتكذيبًا لزعمِهم أنَّهم شَعْبُ اللّه المختار، وتحقيقًا لإثباتِ التُّهمةِ عليهم، وإلصاقِها بهم بصراحَةٍ لا موارَبةَ فيها.

معنى ﴿إن﴾، ونكتةُ إيثارِها على (إذا):

لا يَنبغي لأحدٍ تزكيةُ نفسِهِ على الله تعالى، وادِّعاءُ وِلايتِهِ له

تقييدُ صِدقِ اليهودِ في دَعْواهُمُ الانفرادَ بالوِلاية للّه تعالى من دون النّاس بأداةِ الشَّكِّ ﴿إن﴾ إهانةٌ لهم وإزراءٌ عليهم؛ لأنَّ ﴿إن﴾ تُعرِّض بفُجورهم في هذا القولِ الكاذب، وتدلُّ على أنَّه ما كان ينبغي أنْ يصدرَ عنهم ذلك الزَّعمُ إلّا على سبيلِ الافتراضِ والشَّكِّ والاستبعاد، خصوصًا أنَّهم ﴿ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ وتابوا ورجعوا إلى اللّه تعالى.

وإلى ذلك آثرَ النَّظمُ الكريمُ تقييدَ زعمِهم ذلك بـ﴿إن﴾ دون (إذا) - مع أنَّ دلالةَ القطعِ فيها تلائمُ صدورَ ذلك الزَّعمِ عنهم فعلًا - إخجالًا لهم، وإغلاقًا لبابِ هُروبهم من الحوارِ المُلزِم باستثارَتِهمُ الضَّجيجَ، وتحويلِهمُ المُحاجَّةَ إلى مغالطةٍ، بإعطائِهمُ الفرصةَ لتحويلِ الحوارِ إلى دَعْوى اتِّهامٍ بالكذب الصَّريح.

وكذلك في التَّقييدِ بـ﴿إن﴾ "إشارةٌ إلى أنَّه لا ينبغي أن يُجزمَ به لوجودِ ما يُكَذِّبُه"[1]، و"للإشارةِ إلى أنَّ زعمَهم هذا لمّا كان باطلًا بالدَّلائل كان بمنزلةِ الشَّيءِ الَّذي يُفْرَض وقوعُه كما يُفرَضُ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.

المُستبعَد، وكأنَّه ليس واقعًا، على طريقةِ قوله تعالى: ﴿أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا أَن كُنتُمۡ قَوۡمًا مُّسۡرِفِينَ ۝٥﴾ [الزُّخرف: 5]، ويفيدُ ذلك توبيخًا بطريقِ الكناية"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالزَّعم، وإشارةُ صَوغِهِ ماضيًا في ﴿زَعَمۡتُمۡ﴾:

وفي التَّعبيرِ بمُفردةِ الزَّعم في جملةِ الشَّرط ﴿إِن زَعَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلۡمَوۡتَ﴾ ترجيحٌ لكذبِهم في دَعْواهم؛ لأنَّ "الزَّعْمَ يُستَعمَلُ فيما يُذَمُّ كَقَوْلِه تَعالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ [التَّغابن: 7]، حَتَّى قالَ بعضُ المُفسِّرين: الزَّعْمُ أصلُه الكَذِب"[2]؛ فيحصلُ الاتِّساقُ الدَّلاليُّ، والتَّوازنُ المعنويُّ بينَ إغلاقِ باب تُهمَتِهم الصَّريحةِ بالكذبِ باستعمالِ أداةِ الشَّكِّ والاستبعاد ﴿إِن﴾، وبينَ الإلماحِ إلى ترجيح كذبِهم باستعمال مفردةِ الكذِب ﴿زَعَمۡتُمۡ﴾.

دَعـاوى اليهودِ تـمـيُّـزَهـم على الـنّـاسِ زعـمٌ كاذِب

وفي صوغِ الزَّعم بصيغةِ الماضي ﴿زَعَمۡتُمۡ﴾ دلالةٌ على أنَّ زَعْمَهم كان مجرَّدَ قولٍ منهم بألسنتِهم مِن دون أن يعملوا بمقتضاه، حيث وقع منهم قولًا ثمَّ انقضى.

وهكذا يُعلِّمُنا النَّظمُ القرآنيُّ أساليبَ الحِجاجِ الملزِم، والخِطابِ المُفحِم، خصوصًا مع أهل الباطلِ والمغالطة، المجادِلين في الحقّ.

موقعُ المصدرِ ﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ من التَّركيبِ:

المصدرُ المؤوَّلُ مِن (أنَّ) ومعمولَيْها في قوله تعالى: ﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ منصوبٌ واقعٌ موقعَ مفعولَيْ ﴿زَعَمۡتُمۡ﴾؛ أي: إنْ زعمتُم ثبوتَ وِلايتِكم للّهِ من دون النّاس وانفرادِكم بذلك حاصلًا فتمنَّوُا الموت، وأنْ "ينقُلَكم سريعًا إلى دار كرامته الَّتي أعدَّها لأوليائه"[3]، وتلك حُجَّةٌ عقليَّةٌ، ودليلٌ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 215.
(2) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس: (زعم).
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 531.

منطقيٌّ على كونِهم كاذبين، وفيها كشفٌ لهم أمامَ أنفُسِهم، وفَضْحٌ لادِّعائِهم أمامَ غيرهم.

معنى (أنَّ)، ولطيفةُ إيثارِ التَّعبيرِ بها في قولِهِ: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾:

وعلى ذلك فـ(أنَّ) في قوله: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ﴾ مصدريَّةٌ توكيديَّةٌ، وفي إيثار التَّعبير بها دلالةٌ على قوَّةِ تأكيدِهم لزعمِهم ذلك؛ لأنَّ زعمَهم فيه من الكذبِ ما لا يخفى على أحدٍ، وهم يعرفون قبلَ النّاس كذبَهم في هذا الادِّعاء، فاضطرّوا لتأكيدِهِ بأداةِ التَّأكيد[1].

اعتقادُ اليهودِ تَفَرُّدَهم بالوِلاية للـهِ مِـن دون النّاس ادِّعاءٌ في مَعرِضِ التَّكذيب

دلالةُ التَّعبيرِ بالوِلاية، ولطيفةُ تنكيرِ لفظةِ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾:

الوليُّ هو النّاصرُ، والمُطيع، ويقال: المؤمنُ وليُّ الله تعالى، وفلانٌ أولى بكذا؛ أي: أحقُّ به[2]؛ فقولُهُ تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ معناه: "مُقرَّبون منه، كُرَماءُ عليه، لهم منزلةٌ خاصَّةٌ عندَه تعالى"[3].

اليهودُ يَزعُمون أنَّهم أحبابُ الله تـعـالى، وأحـقُّ بكرامتِه

وقولُهُ تعالى في آيةٍ أُخرى: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18] "آذَنَ بأنَّ الوليَّ بمعنى الحبيب؛ فإنَّ المُحِبَّ يُحِبُّ لِقاءَ محبوبه، ولا يَكرهُ قُرْبَهُ، نحوُهُ قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ [البقرة: 94]"[4].

واليهودُ "كانوا يقولون: نحن أبناءُ الله وأحبّاؤُه، ويدَّعون أنَّ الدّارَ الآخرة لهم عندَ الله خالصة، ويقولون: لن يدخلَ الجنَّة إلّا مَن كان هودًا؛ فأُمِرَ رسولُ الله ﷺ بأنْ يقولَ لهم إظهارًا لكذبِهم: إنْ زعمتُم ذلك ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾"[5]؛ فإنَّ الحبيب يتمنّى لقاءَ مَن يحبُّ، ولا يَفِرُّ منه، ويَوَدُّ أن يستريحَ من كُرَبِ الدُّنيا وغُمومِها، ويصيرَ إلى رَوح الجِنان ونعيمِها"[6].

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 58.
(2) الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: (ولي).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 383.
(4) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 406.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 9/ 230.

وفي تنكيرِ لفظةِ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ تحقيرٌ لشأنِهم، وازدراءٌ لهم، وتهكُّمٌ بهم؛ إذ لو عرَّفَهم بالإضافةِ لنَسَبَهم إليه، وفي ذلك تشريفٌ لهم، ولو عرَّفَهم بـ(أل) لبَرَزَ فيه معنى قصرِ الولايةِ عليهم، لذلك جاءَ اللَّفظُ مُنكَّرًا؛ دلالةً على انحطاطِ منزلتِهم.

دلالةُ جمعِ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾:

اليهودُ يعتقدون أنَّهم جميعًا أهلُ الولاية، رجالُهم ونساؤُهم، عُبّادُهم وفُسّاقُهم

وفي جمعِ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾ إشارةٌ إلى مُعتَقَدِ اليهودِ؛ أنَّ رجالَهم ونساءَهم، وعُبّادَهم وفُسّاقَهم جميعًا أهلُ الولاية، وأنَّ ذلك مقرَّرٌ في ميزانِ اللهِ تعالى لا شكَّ فيه.

معنى اللّامِ في القيدِ ﴿لِلَّهِ﴾، ولطيفةُ إيثارِ التَّعبير بالاسمِ الجليل:

زَعْمُ اليهودِ اختصاصَهم بولايةِ الله تعالى كَذِبٌ مَحْض

اللّامُ في القيد ﴿لِلَّهِ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ للاختصاصِ؛ أي: ادَّعيتُم أنَّه تعالى "خَصَّكم بذلك خصوصيَّةً مُبتدَأةً"[1]، وهذا الاختصاصُ بولايةِ اللهِ تعالى زَعْمٌ مِنهم فاسدٌ، لا حقيقةَ في واقعِ حالهم.

وأوثِرَ التَّعبيرُ في مقامِ ذِكرِ الولايةِ بالاسم الجليل لأنَّ المقامَ مقامُ عبوديَّةٍ، والعبوديَّةُ تكاليفُ، والاسمُ الجليل بالتَّكاليفِ أخصُّ، كما أنَّ التَّعبير بوصف الرَّبِّ في مقامِ الامتنانِ بالعطايا أخصُّ، واللهُ تعالى أعلم.

توجيهُ المتشابِهِ اللَّفظيِّ في ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، و﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ﴾:

بَوْنٌ شاسعٌ بينَ مَن يَدَّعي الولايةَ للهِ سبحانه، وبينَ مَن يَخُصُّهُ اللهُ تعالى بالولاية

وقعَ التَّشابُهُ اللَّفظيُّ بينَ قوله تعالى هنا: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ وبينَ قولِهِ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: 62]، على فَرْقِ ما بينَهُما من اختصاصٍ مُدَّعًى مكذوبٍ في زَعم اليهود أنَّهم ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ﴾، واختصاصٍ حقيقيٍّ صادقٍ في إخبارِ اللهِ تعالى عن عبادِهِ المؤمنين الطّائعين أنَّهم (أولياءُ اللهِ).

وقد لَفَتَ الطّيبيُّ إلى هذا المعنى، حيث قال: "لم يُضِفْ ﴿أَوْلِيَآءُ﴾

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 58.

لـ(الله) كما أضافَ في قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾ [يونس: 62]؛ ليُؤْذِنَ بالفَرْقِ بينَ مَن يدَّعي أنَّه مِن أولياء الله سبحانه، وبينَ مَن يَخُصُّ اللهُ تعالى بالولاية، ونحوُهُ في الإضافةِ قولُهُ: ﴿مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ [الصّف: 14]؛ أي: مَن الأنصارُ الَّذين يَختصّون بي، ويكونون معي في نُصرةِ الله؟ ومعنى ﴿نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: 14]: نحن الَّذين يَنصرون اللهَ تعالى"[1].

محلُّ القيدِ ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ ومعنى ﴿مِن﴾ فيه:

الجارُّ والمجرورُ ﴿مِن دُونِ﴾ متعلِّقان إمّا بمحذوفٍ نعتٍ ثانٍ لـ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾، وإمّا بمحذوفٍ حالٍ من ﴿أَوۡلِيَآءُ﴾؛ لاختصاصِها بالنَّعت الأوَّل[2].

التَّأكيدُ - في زعمِهم - على اختصاصِ الولايةِ بهم مِن دونِ باقي الأُمَم

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ زائدةٌ على أصلِ التَّركيبِ صناعةً؛ إذ الأصل: إنْ زعمتم أنَّكم أولياء لله دون النّاس فتمنّوا الموت، فزيدت ﴿مِن﴾ لتأكيدِ نفي ولايةِ النّاس جميعًا لله تعالى، وتخليصِها لليهود فقط وتخصيصِها بهم. واعتبر البقاعيُّ ﴿مِن﴾ هنا ابتدائيَّةً فقال: "خصَّكم بذلك - أي: ﴿أَنَّكُمۡ أَوۡلِيَآءُ لِلَّهِ﴾ - خصوصيَّةً مُبتدَأةً مِن دونِ النّاس"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظِ ﴿دُونِ﴾، ولطيفةُ إضافتِهِ لـ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

دَأْبُ اليهودِ وشأنُهم احتقارُ النّاس وازدراؤُهم وظُلمُهم

﴿دُونِ﴾ ظرفُ مكانٍ ملازمٌ للظَّرفيَّة الحقيقيَّة أو المجازيَّة[4]، غيرُ متصرِّفٍ، وهو نقيضُ (فوْق)، نحو: (هو دونَه)؛ أي: أحطُّ منه رتبةً، أو منزلةً، أو مكانًا[5]، وفيه معنى الدُّنوِّ؛ أي: القُرْب.

وسِرُّ التَّعبير بـ﴿دُونِ﴾ هنا تصويرُ اقترابِ اليهودِ - في زعمهم

(1) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 407.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 92.
(3) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20/ 58.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط في التفسير: 1/ 165.
(5) الغلاييني، جامع الدروس العربية: 3/ 64.

- إلى ولاية الله تعالى اقترابًا مجازيًّا أكثرَ مِن سِواهم، وأنَّ النّاس في ذلك أدنى وأحطُّ مِنهم منزلةً، ولعلَّ تلك الدَّلالةَ بعضُ عطاءِ الإضافةِ في ﴿مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، والله تعالى أعلم.

وذكَرَ أبو حيّان لِلَفظةِ ﴿دُونِ﴾ في سياقِ هذا التَّركيبِ معنًى جميلًا، فقال: "و﴿دُونِ﴾ هنا لفظٌ يُستعمَلُ للاختصاصِ وقَطْعِ الشِّرْكة، تقول: هذا لي دونَك؛ وأنت تريد: لا حَقَّ فيه لك معي ولا نصيبَ، وفي غير هذا المكانِ يأتي لمعنى الانتقاصِ في المنزلةِ أو المكانِ أو المقدار"[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنَّاسِ﴾ لتعريفِ الجنسِ، دالَّةٌ على استغراقِ جميعِ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، وهذا هو اعتقادُ اليهود الجازم؛ إذ يعتقدون أنَّ عمومَ النّاس مِن غيرِهم محرومون من ولاية الله تعالى، وأنَّهم هم فقط مَن يَمْتازون بها ويَنفَرِدون بكراماتِها.

اليهودُ يَعتَقِدون جِزْمانَ عمومِ النّاسِ سِواهم مِن ولايةِ الله تعالى، وأنَّهم يَنفَرِدون بكراماتِها

معنى الفاءِ في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

(الفاءُ) في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ ﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾، رابطةٌ لجُزئَيِ الكلام، شادَّةٌ لطَرَفَيْ جملةِ الشَّرطِ الشَّرْيَّةِ بكثرةِ تفاصيلها.

وقد جعَلَ الله تعالى هذه الجملةَ بشَرْطِها وجوابِها معجزةً لسيِّدِنا محمَّدٍ ﷺ فيهم، وآيةً باهرةً، وأعلَمَهُ أنَّه إنْ تمنَّى أحدٌ منهم الموتَ في أيّامٍ معدودةٍ ماتَ وفارَقَ الدُّنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ على جهةِ التَّعجيزِ، وإظهارِ الآيةِ والعِبرة، فما تمنّاه أحدٌ خوفًا مِن الموت، وثِقَةً بِصدقِ محمَّدٍ ﷺ[2].

خوفُ اليهودِ تحدّيَ الرَّسولِ ﷺ دليلُ اعتقادِهم صدقَهُ، فإصرارُهم عِنادٌ وجُحود

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 1/ 497.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 308.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّمنّي في جملةِ ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

"والتَّمنّي: ارتياحُ النَّفسِ ورغبتُها القويَّةُ في الحصولِ على الشَّيء. ويُستعمَلُ التَّمنّي في المعنى القائم بالقلب، بأنْ تَتَطَلَّعَ نفسُ الشَّخص إلى الحصول على الشَّيء، كما يُستعمَلُ عن طريق النُّطْق باللِّسان، بأنْ يقولَ الإنسان بلسانه: ليتني أحصُلُ على كذا. وهذا المعنى الثّاني هو المرادُ هنا؛ لأنَّ المعنى الكائنَ في القلبِ لا يَعلَمُهُ أحدٌ سوى اللّه تعالى.

والمعنى: قل لهم على سبيلِ التَّحدّي والتَّعجيزِ والتَّبكيت: إنْ كان الأمرُ كما زعمتُم فاذكروا أمامَ النّاس بألسنتِكم لفظًا يَدلُّ على أنَّكم تُحبّون الموت، وترغَبون فيه؛ لكي تظفروا بعدَ الموتِ بالمَحَبَّةِ الكاملة مِن اللّه تعالى، ولكي تَنْتَقِلوا مِن شقاء الدُّنيا ومتاعِبها إلى النَّعيم الخالصِ بعدَ موتِكم"[1].

قال الماتريديُّ: "المباهَلةُ[2] في المتعارَفِ إنَّما هي المُحاجَّةُ في بلوغ العِنادِ والتَّمرُّدِ غايتَهُ، فكأنَّه لمّا قُرِّرَتْ عندهم جميعُ الحُجَجِ فلم يقبلوها أمَرَهُ بالمباهلة؛ فلم يُباهِلْهُ اليهودُ والنَّصارى؛ لأنَّه يجوزُ أنْ قد كان في كتابهم هذا أنَّ المباهلةَ مِن غايةِ المُحاجَّةِ، وأنَّ مَن باهَل نزَلَ عليه العذابُ واللَّعنة إنْ لَمْ يكن مُحِقًّا؛ فلذلك امتَنَعوا من المُباهلة.

وأمّا العربُ مِن المشركين فلم يكن لهم كتابٌ يعرفون به حُكْمَ المُباهلة فباهَلوا، وذلك أنَّه روي: أنَّ أبا جهلٍ كان يقول: اللهمَّ انصُرْ أحبَّنا إليك، وأقْرانا للضَّيْف، وأوْصَلَنا للرَّحِم؛ فنَصَرَ اللّهُ تعالى نَبيَّه ﷺ، فأبو جهلٍ باهَلَه؛ لأنَّه لم يكن له كتابٌ، ولم يُباهِلْهُ اليهودُ والنَّصارى لمّا كانت لهم كُتُبٌ عرَفوا فيها حُكْمَ المُباهلة، واللّه أعلم"[3].

وفي التَّعبيرِ بمُفردةِ التَّمنّي في جملةِ جواب الشَّرط ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ دعوةٌ لليهود إلى قوَّةِ التَّعلُّقِ القلبيِّ واللَّفظيِّ بالموت؛ ليكونَ تعلُّقُهم به كنايةً عن صدقِهم في أنَّهم ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾، وقد خافوا ولم يَتَمنَّوا، وهذا دليلٌ على كذبِهم في دَعْواهم التَّفرُّدَ بولاية اللّه تعالى من دون النّاس.

---

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 383.

(2) "المُباهَلَة: المُلاعَنة، يقال: باهَلْتُ فُلانًا؛ أي: لاعَنْتُهُ، وَمَعْنَى المُباهَلَة أَن يَجْتَمِعَ القَوْمُ إِذا اخْتَلَفُوا في شَيْءٍ فَيَقُولُوا: لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِم"، ينظر: ابن منظور، لسان العرب: (بهل).

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10.

تمنّي الشَّيءِ دليلُ التَّعلُّق به

كما يوحي فعلُ التَّمنّي باستحالةِ حصولِ الموت بالتَّمنّي، وأنَّه لا يأتي إلّا في أجَلِه، وفي حينِهِ الَّذي وقَّتَهُ اللّه تعالى، كما قال ﷻ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأعراف: 34].

غَرَضُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾:

أهلُ الباطلِ يَجْبُنون عن مُجابَهةِ الحقِّ في المقاماتِ الحاسِمة

الأمرُ بالتَّمنّي في قوله: ﴿فَتَمَنَّوُاْ﴾ "مستعملٌ في التَّعجيز؛ كنايةً عن التَّكذيب، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [آل عمران: 93]"[1]، وفي عدمِ مُجاراتِهم لذلك التَّحدّي دلالةٌ على أنَّ أهلَ الباطل يَجْبُنون عن مُجابهةِ الحقِّ في اللَّحظاتِ الحاسمة.

معنى (أل) في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾:

الواثقُ في صلاحيةِ أعمالِهِ للعَرْضِ على اللهِ تعالى لا يَخشى الموتَ على أيِّ حال

و(أل) في ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ لتعريفِ الجنس؛ أي: فتمنَّوا أيَّ موتٍ، بأيِّ وسيلةٍ، وعلى أيِّ صورةٍ إن كنتم واثقين أنَّ في الموتِ خلاصًا مِن هموم الدُّنيا وأكدارِها إلى جنّاتِ اللّه تعالى وكراماته، وصادقين في أنَّكم أولياءُ للّه تعالى أصلًا، بغضِّ النَّظر عن ولايةِ غيركم له تعالى مِن عدمِها، وإنْ كان عدمُها - كما تزعُمون - يُفرِدُكم بها فلْيكنْ حرصُكم على الموت الآنَ آكَدَ.

نكتةُ تقييدِ كونِهم صادقين بـ ﴿إِن﴾ دون (إذا):

الدَّلالاتُ النَّظميَّةُ في الذِّكر الحكيم تتآزرُ على مستوى السّياقِ القريبِ المباشرِ والبعيدِ المُمْتَدّ

في تقييدِ كونِ اليهود صادقين في دَعْواهم ولايتَهم للّه تعالى من دون النّاس بـ﴿إِن﴾ دون (إذا) تَحَدٍّ لهم في أنْ يتمنَّوا الموتَ، وتهييجٌ لكبريائهم بالإلماح بـ﴿إِن﴾ إلى استبعادِ حصول ذلك منهم؛ فـ﴿إِن﴾ توحي بالشَّكِّ في كونهم صادقين، وترجِّح أنَّ صدقَهم مجرَّدُ افتراض واحتمال، وذلك لا يتَّسِقُ مع دلالة (إذا) الَّتي تُرجِّحُ صِدقَهم في هذا الزَّعم لو قُيِّد صدقُهم بها.

وإلى ذلك ففي إيثار ﴿إِن﴾ اتِّساقٌ مع مفردةِ الزَّعم، وتناغُمٌ مع

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 216.

﴿إِن﴾ قُبَيْلَه في جملةِ ﴿إِن زَعَمْتُمْ﴾، وهكذا تتآزَرُ الدَّلالاتُ النَّظْميَّةُ في الذِّكرِ الحكيم في السّياقَينِ القريبِ المباشِرِ والبعيدِ الممتدّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالكونِ الماضي في جملةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

وفي التَّعبيرِ بفعل الكون الماضي في جملةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إلحاحٌ في التَّهييجِ والاستثارة والإلهاب، والاستدراجِ إلى المُتحدَّى به مِن تَمَنّي الموت؛ إذ الكونُ الماضي يوحي بالقطعِ بتَحقُّقِ صِدقهم وثبوته ماضيًا مفروغًا منه، وإلّا فالأصلُ الإيجازُ، فيقال في غيرِ القرآن الكريم: فتمنَّوا الموت إنْ صَدَقْتُم، وهكذا يُمعِنُ أهلُ الحقِّ في تحدّي أهل الباطل، فيفضحونهم ويُحَقِّقونه عليهم.

الحقُّ قويٌّ يُمعِنُ به أهلُهُ في تحدّي أهلِ الباطل، فيَفضَحونهم ويُحقِّقونه عليهم

ووجهُ الملازمة بين الشَّرط وجوابه أنَّ الموت رجوعُ الإنسان بروحِه إلى حياةٍ أبديَّةٍ تَظهَرُ فيها آثارُ رِضا الله تعالى عن العبد أو غضبِه؛ ليجزيَه على حسَب فِعله. والنَّتيجةُ الحاصلةُ من هذا الشَّرط تُحَصِّلُ أنَّهم - أي: اليهودَ - مثلُ جميع النّاس في الحياتَينِ الدُّنيا والآخرة، وآثارِهما، واختلافِ أحوالِ أهلهما، فيُعلَمُ من ذلك أنَّهم ليسوا أفضلَ من النّاس. وهذا ما دَلَّ عليه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ﴾ [المائدة: 18].

وبهذا يندفعُ ما قد يَعرِضُ للنّاظر في هذه الآية مِن المُعارضةِ بينها وبين ما جاء في الأخبارِ الصَّحيحةِ مِن النَّهي عن تَمَنّي الموت، فلو حَصَل لأحدٍ يقينٌ بالتَّعجيل إلى النَّعيم لَتَمَنَّى الموتَ، إلّا أنْ تكونَ حياتُهُ لتأييدِ الدّين كحياةِ الأنبياء[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالصِّدق، ونكتةُ تنكيرِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾، ولطيفةُ صَوْغِهِ اسمَ فاعل:

وفي التَّعبيرِ بمفردةِ الصِّدق الصَّريح في جملةِ ﴿إِن كُنتُمْ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 216.

القرآنُ الكريمُ يَفضَحُ اليهودَ بأنَّهم عالِمون ببُطْلانِ ما هُم عليه وفسادِه

﴿صَٰدِقِينَ﴾ دَعْمٌ لذلك الإلهابِ والاستدراج؛ إذ التُّهمةُ بِضِدِّ الصِّدق هي المفهومةُ مِن ﴿إِن﴾؛ أي: أنَّهم كاذبون في دَعْواهم ولايتَهم للّٰهِ تعالى دون مَن سواهم مِن ﴿ٱلنَّاسِ﴾.

وفي تنكيرِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ مزيدُ تشكيكٍ في أدنى صدقٍ منهم، وفي أيِّ قدرٍ منه فيهم، وإلّا لقيل لهم: إن كنتم الصّادقين؛ أي: المُنفرِدينَ بالصِّدق؛ فدلَّ التَّنكيرُ على أنَّهم مُجرَّدون من كلِّ صدقٍ، مُتَّهمون بكلِّ كذِبٍ، وفي ذلك إهانةٌ لهم ما بعدَها إهانة.

وفي صَوغِ ﴿صَٰدِقِينَ﴾ اسمَ فاعلٍ كذلك تشكيكٌ في ثُبوتِ الصِّدق لهم، ونفيٌ لرُسوخِه فيهم خُلقًا ودينًا، و"لو علموا أنَّهم على حقٍّ لَما توقَّفوا عن هذا التَّحدّي الَّذي جعله اللّٰه تعالى دليلًا على صدقِهم إنْ تمنَّوهُ، وعلى كذبِهم إن لم يتمنَّوهُ، ولمّا لَم يقعْ منهم مع الإعلانِ لهم بذلك عُلِمَ أنَّهم عالِمون ببُطْلانِ ما هم عليه وفسادِه"[1].

دلالةُ حذفِ جوابِ الشَّرطِ من جملةِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾:

الشَّرطُ في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ محذوفُ الجوابِ؛ وذلك لِدلالةِ ما قبلَهُ عليه، والمعنى: إن كنتم صادقين في زَعْمِكم واثقين بأنَّه حقٌّ فتمنَّوا الموت؛ فإنَّ مَن أيْقَنَ بأنَّه من أهل الجنَّة أحبَّ أنْ يَتخلَّصَ إليها من هذه الدّارِ الَّتي هي قرارةُ الأكْدار[2].

حـذفُ جـوابِ الشَّـرطِ الـدّالِّ مـا قـبلَـهُ عليه يوحي باستبعادِ حُـصـولِ ذلـك الجوابِ أصلًا

وفي حذفِ جوابِ الشَّرط في مثلِ هذا السّياقِ إيحاءٌ باستبعادِ تحقُّقِ جوابِه المحذوف، وكأنَّ المعنى هنا: أنَّهم في الأصل ليسوا صادقين؛ فكيف يَتحقَّقُ تَمَنّي موتِهم؟.

معنى (الواوِ) في قولِهِ: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾:

قولُه تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ "إخبارٌ بحالِهم المستقبَلةِ،

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.

وهو عدمُ تمنّيهمُ الموتَ، وذلك خاصٌّ - على ما صرَّح به جمعٌ - بأولئك المخاطبين"[1].

أخبـارُ الـقـرآنِ الكريمِ بالغيبِ تَقعُ على ما أخبَر

و(الواوُ) في قولِه تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ استئنافيَّةٌ، حيث يَتحوَّلُ الخطاب إلى رسول الله ﷺ؛ يُخبِرُهُ بالغيب قبلَ وقوعه، ويبشِّرُه بافتضاحِ كذب اليهود أمامَ أنفسهم وأمامَ ﴿ٱلنَّاسِ﴾، الَّذين يزعُمون حرمانَهم من ولاية الله تعالى، وقد خافَ اليهودُ من لقاءِ الموت، ولم يتمنَّوهُ على وفْقِ ما أخبر القرآنُ الكريم بالغيب قبلًا.

أو (الواوُ) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ اعتراضيَّةٌ على توجيهِ ابن عاشورٍ بأنَّ الآيةَ "اعتراضٌ بينَ جُملتَي القولين؛ قُصِدَ به تَحَدّيهم؛ لإقامةِ الحجَّةِ عليهم أنَّهم ليسوا أولياءَ لله. وليس المقصودُ من هذا معذرةً لهم من عَدَم تمنّيهمُ الموتَ، وإنَّما المقصودُ زيادةُ الكشفِ عن بُطلانِ قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18]، وإثباتُ أنَّهم في شكٍّ من ذلك، كما دلَّ عليه استدلالُ القرآن عليهم بتَحَقُّقِهم أنَّ الله تعالى يُعذِّبُهم بذُنوبهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: 18]"[2].

معنى (لا) في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾:

التَّحدّي المُسبَقُ؛ لإظهارِ جُبنِهم وكَذِبِهم

(لا) في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ نافيةٌ، تتحدّاهم مُسبقًا بجُبنِهم وتحاشيهم طلبَ الموت لِسوءِ ما يعلمون من أعمالهم؛ دليلًا على عِلمهم بكَذِبهم في أنَّهم ﴿أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾.

توجيهُ المُتشابِهِ اللَّفظيِّ في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾ وجملةِ ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾:

المتشابهُ القرآنيُّ يُحقِّقُ لكلِّ مقامٍ مـا يَـقـتَـضـيـه، فَيَفي لكلِّ مقامٍ بِحَقِّه

وقعَ التَّشابُهُ اللَّفظيُّ في قوله تعالى هنا: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مع قوله تعالى: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [البقرة: 95].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 217.

وقد سوَّى بينَهُما الزَّمخشريُّ فقال: "ولا فرقَ بين (لا) و (لن) في أنَّ كلَّ واحدةٍ منهما نَفْيٌ للمستقبل، إلّا أنَّ في (لن) تأكيدًا وتشديدًا ليس في (لا)؛ فأُتيَ مرَّةً بلفظِ التَّأكيدِ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾، ومرَّةً بغيرِ لفظه ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾"(1).

لكنَّ الطِّيبيَّ في حاشيته على الكشّاف نقل عن الرّاغب لطيفةً دقيقةً، هي أنَّه "لمّا كان قولُه تعالى في سورة البقرة: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا﴾ [البقرة: 94 - 95] مُفتتَحًا بشرطٍ عُلِّقَتْ صِحَّتُهُ بتمنّي الموت، ووقَعَ هذا الشَّرطُ غايةَ ما يَطْلُبُهُ المُطيعُ، ولا مطلوبَ وراءَه على ما ادَّعَوْه لأنفسِهم، وهو أنَّ لهم الدّارَ الآخرةَ خالصةً من دون غيرِهم وجَبَ أنْ يكونَ ما يُبطِلُ تمنّيَ الموتِ المُؤدّي إلى بُطلانِ شرطِهم أقوى ما يُستعمَلُ في بابه، وأبلَغَهُ في نفي ما يَنتفي شرطُهم به؛ فكان ذلك بلفظةِ (لن) الَّتي للقَطْعِ والبَتات.

وليس كذلك الشَّرطُ في سورة الجمعة؛ إذْ ليس زعمُهم أنَّهم أولياءُ للّهِ من دون النّاس مِثْلَ المطلوب الَّذي لا مطلوبَ وراءه وهو الدّار الآخرة؛ لأنَّهم يَطلُبون بعد ذلك - إذا صحَّ لهم هذا الوصفُ - دارَ الثَّواب؛ فلمّا كان الشَّرطُ في هذا المكانِ - أي: في الجمعة - قاصرًا عن الشَّرطِ في ذلك المكانِ - أي: في البقرة - ولم تكنِ الدَّعوى في الجمعة غايةَ المطلوب لم يَحتَجّ في نفْيِه وإبطالِه إلى ما هو غايةٌ في بابه"(2).

وفي هذا المتشابهِ "بيانُ أنَّ مَن كان مِن أوليائِه تعالى فله الدّار الآخرةُ عند اللّه خالصةً، ومَن كانت له الدّارُ الآخرة فهو مِن أوليائِه ﷻ"(3).

دلالةُ التَّمنّي في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بالتَّمنّي في جملةِ ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا﴾ على عدمِ

اليهودُ يكرهون الموتَ؛ لِعِلْمِهم بسوءِ حالِهم عندَ الله

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 531.
(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 15/ 407.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 9.

إرادةِ لقاءِ الموت، وعدم إرادةِ حصولِهِ لهم، قال ابنُ عطيَّةَ: "ولا يتمنَّونه: ولا يَلقَونه إلّا كَرهًا؛ لعِلْمِهم بسوءِ حالِهم عند الله تعالى، وبُعدِهم منه"[1].

نكتةُ التَّقييدِ بالظَّرفِ ﴿أَبَدًا﴾:

وفي تقييدِ عدمِ تمنّي اليهودِ الموت بالظَّرف ﴿أَبَدًا﴾ دلالةٌ على صدقِ رسالةِ رسولنا ﷺ؛ لأنَّه لو كان يقولُهُ مِن تلقاءِ نفسه لكانوا يُبادِرون فيَتَمَنَّون الموتَ للحالِ؛ ليَظهَرَ كذبُهُ فيه حاشاه ﷺ، فلمّا أخبَرَ أنَّهم لا يتمنَّونه أبدًا، ولَمْ يتمنَّوه حقًّا تَبَيَّنَ أنَّه قالَهُ من سبيلِ الوحي، وأنَّهم علموا ذلك حتّى امتنعوا عن التَّمنّي؛ خوفًا على أنفُسِهم من الهلاك؛ لعِلْمِهم أنَّهم لو تمنَّوا لَماتوا، واللّه تعالى أعلم[2].

اليهودُ يعلمون أنَّهم لو تَمَنَّوا لَماتوا؛ فامتَنَعوا عن التَّمنّي خوفَ الهلاكِ على أنفُسِهم

معنى (الباءِ) في قولِهِ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾:

(الباءُ) في القيد ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ سببيَّةٌ؛ أي: أنَّ اليهودَ بسببِ ما قدَّمت أيديهم مِن شرورٍ وآثامٍ وجرائمَ، وعلمِهم ما يَنتَظِرُهم من عقابِ اللّه تعالى وعذابه لا يكونُ موتُهم أُمْنيَّةً لهم ولا مطلبًا.

يكرهُ المُذنِبُ الموتَ بسببِ معاصيه، ويتحاشى تَمنّيَ حُلولِه

معنى (ما) في قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ﴾:

(ما) في القيدِ ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ موصولةٌ، والعائدُ عليها محذوفٌ تقديرُهُ: بما قدَّمته أيديهم؛ أي: أنَّهم لا يتمنَّون الموتَ بسببِ جرائمِ الظُّلمِ والفسادِ والإفسادِ الَّتي فعلوها وقدَّموها لأنفسِهم في الآخرة، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: 11]، وتَحتَمِلُ (ما) أنْ تكونَ مصدريَّةً؛ أي: أنَّهم لا يتمنَّون الموتَ بتقديمِ أيديهم الأعمالَ السَّيِّئةَ والأفعالَ الخبيثة.

(ما) غـزيـرةُ الـدَّلالـة؛ حيث تُعطي بإيجازٍ ما لا يُعطيهِ الاسمُ الصَّريحُ بإطناب

وجملةُ ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ على كِلا الوجهين لا محلَّ لها من

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 5/ 308.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10، بتصرف.

الإعراب؛ لأنَّها على الأوَّل صلةُ الموصول الاسميِّ، وعلى الثّاني صلة الموصول الحرفيّ.

وتَحتَمِلُ (ما) كذلك وجهًا ثالثًا، وهو أنْ تكونَ نكرةً موصوفةً بمعنى (شيء)، والجملةُ حينئذٍ في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّها صفةٌ لـ(ما)، والعائدُ على الموصوفِ في جملةِ الصِّفةِ محذوفٌ تقديرُهُ: بسببِ شيءٍ قدَّمتْهُ أيديهم.

والمقصودُ بـ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ "تحريفُ التَّوراةِ والإنجيل؛ لأنَّ قولَ النَّصارى ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [المائدة: 18] لم يكنْ في الإنجيل، وقولَ اليهود: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا﴾ [البقرة: 111] لم يكن في التَّوراة، ولكنَّهم غيَّروا وبدَّلوا؛ فلا يتمنَّون الموت بما قدَّمت أيديهم؛ من تحريفِ هذه الآياتِ وتبديلِها، وتغييرِ نَعْتِ مُحَمَّدٍ ﷺ"[1]. فـ(ما) غزيرةُ الدَّلالةِ ثريَّةُ العطاء؛ وتُعطي بإيجازٍ ما لا يُعطيهِ الاسمُ الصَّريحُ بإطنابٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالتَّقديم، ولطيفةُ صَوغِهِ ماضيًا في ﴿قَدَّمَتْ﴾:

لا يمكنُ تَدارُكُ ما انقَضى من أعمالِ العباد لِمعالجةِ شُرورِه في الدُّنيا

في التَّعبير بمُفردةِ التَّقديم في جملةِ ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دلالةٌ على أنَّ أفعال العباد من خيرٍ وشرٍّ إنَّما تُقَدَّمُ إلى مستقبلِهم الأخرويِّ، فتَسبِقُهم وتنتظِرُهم ليُجازَوا بها، ولا تُؤَخَّرُ وراءَهم في الدُّنيا فتهملَ وتضيعَ سُدًى.

وصَوغُ فِعلِ التَّقديم ماضيًا في جملةِ ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ إشارةٌ إلى طَيِّ الأعمالِ في الدُّنيا، وعدمِ تدارُك ما انقضى منها لمعالجةِ شروره في الدُّنيا إلّا بالتَّوبةِ النَّصوحِ، ودلالةٌ على ذَهابِها إلى الآخرةِ ليُحاسَبَ بها أصحابُها.

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 10.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿قَدَّمَتْ﴾:

جميعُ أعمالِ العبدِ تُحصى عليه، والله تعالى يغفرُ مِنها ما يشاءُ برحمتِه

في حذفِ المفعولِ مِن جملةِ ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ - وهو الذُّنوب والمعاصي الَّتي يَستوحِشون من الموت مِن أجْلِها[1] إفادةُ الإطلاقِ والعموم؛ أي: لا يَضيعُ عَمَلٌ عَمِلَهُ العبدُ، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزَّلزلة: 7 - 8]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: 30].

ومِن رحمةِ اللّه تعالى في هذه الآيةِ أنَّه لم يقل: وما عملتْ من سوءٍ مُحضَرًا كما قال في مقابِله، نَعَمْ إنَّه ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ [الزلزلة: 8]، لكنْ ليس شرطًا أن يكونَ مُحضَرًا يُؤاخَذُ به؛ ففَتَحَ حَذْفُ (مُحضَرًا) مع عملِ السّوء بابَ الأملِ للعصاةِ، وبابَ الرَّجاء ليتوبوا.

بلاغةُ المجازِ في جملةِ ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾:

أعمالُ الجوارحِ كلُّها محفوظةٌ باقيةٌ، تَقَدَّمتْ صاحبَها إلى الآخرة

صوَّر النَّظمُ الكريم أعمالَ العباد بأشياءَ تُقَدَّمُ بالأيدي على سبيلِ الاستعارة المكنيَّة، من بابِ تشبيهِ المعقول بالمحسوس؛ مبالغةً في تمايُزِ الأعمال، وبقائِها وعدمِ هدرها أو ضياعِها، وتأكيدًا على حفظها لمواجهةِ أصحابها بها يومَ القيامة.

وفي جَعْلِ التَّقديم للأيدي خاصَّةً مجازٌ مرسلٌ عَلاقتُهُ الجزئيَّة، حيث عُبِّر بالأيدي عن جميعِ أعضاء الجسم؛ لأنَّ الأيديَ بالتَّقديم أخصُّ؛ فـ"الأيدي مجازٌ في اكتسابِ الأعمال؛ لأنَّ اليدَ يَلزَمُها الاكتسابُ غالبًا"[2]، و"لمّا كانت اليدُ من بينِ جوارحِ الإنسان مَناطَ عامَّةِ أفاعيلِه؛ عُبِّرَ بها تارةً عن النَّفس، وأُخرَى عن القُدْرَة"[3].

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 863.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 218.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.

غرضُ الالتفاتِ من خطابِ اليهودِ إلى الحديث عنهم:

في الالتفاتِ مِن خطابِ اليهود إلى الإخبارِ عنهم تعريضٌ بسَخَطِ الله تعالى عليهم

التَفَتَ النَّظمُ الكريم من خطابِ اليهود في قوله تعالى: ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ إلى الإخبار عنهم في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وفي ذلك الالتفاتِ إهمالٌ لشأنِهم بالانصرافِ عن خطابهم، وتعريضٌ بسَخَطِ الله تعالى عليهم، وتأكيدٌ للوعيد في جملةِ التَّذييل ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وتَطْريةٌ على المتلقّي بالتَّحوُّل بالأسلوب عن مَهيَعِه المطَّرِد؛ فتُطرَدُ عنه السَّآمةُ، ويتجدَّدُ عنده نشاطُه.

معنى (الواوِ) في قوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

(الواوُ) في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافيَّةٌ؛ "والجملةُ تذييلٌ لِما قبلَها، مُقرِّرةٌ لِما أشار إليه مِن سوءِ أفعالِهم واقتضائِها العذابَ؛ أي: واللهُ تعالى عليمٌ بما صدَرَ منهم من فُنونِ الظُّلم والمعاصي وبما سيكونُ منهم فيُجازيهم على ذلك"[1].

ويجوزُ أن تكونَ الواوُ حاليَّةً، والجملةُ حالٌ من ضميرِ الرَّفع في ﴿يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ﴾؛ أي: ولا يتمنَّون الموتَ بسبب معاصيهم عالِمًا بهم ربُّهم وبظُلمِهم، مُجازيًا لهم على سوءِ فِعالِهم.

نكتةُ خَتْمِ الآية بصفةِ العلم، ولطيفةُ صوغِهِ على (فَعيل):

العليمُ سبحانه محيطٌ مُطَّلِعٌ على أكاذيبِ اليهودِ مُؤاخِذُهم بها

العليمُ: اسمٌ من أسماء اللهِ الحُسْنَى، ومعناه: المُدرِكُ لِما يُدركه المخلوقون بعقولهم وحواسِّهم وما لا يستطيعون إدراكَه، مِن غير أن يكون موصوفًا بِعقل أو حِسٍّ. أو الفائقُ في العلم[2].

وفي ختمِ الآية بصفة العلم في جملةِ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تهديدٌ شديدٌ ووعيد أكيدٌ لليهود الظّالمين؛ حيث "كُنِيَ بِعلم الله

(1) الآلوسي، روح المعاني: 14/ 291.
(2) عمر أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (علم).

تعالى بأحوالهم عن عدم انْفِلاتِهم مِن الجزاءِ عليها؛ ففي هذا وعيدٌ لهم"[1].

وفي صَوغِ ﴿عَلِيمُۢ﴾ على صيغةِ (فَعيل) مبالغةٌ في وصفِهِ سبحانه بالعِلم، تدلُّ على سَعةِ علمه تعالى، وتمامِ إحاطته بكلِّ شيء على وجهِ الإجمال والتَّفصيل، كما قال تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]، جلَّ جلال الله العظيم.

معنى الباءِ في القيدِ ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

عِـلْـمُ الـلـهِ تـعـالى محيطٌ بـالـظّـالمين، لا يَنفَكُّ عنهم قطُّ

و(الباءُ) في القيدِ ﴿بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للإلصاقِ المعنويِّ المجازيِّ؛ أي: أنَّ علم الله تعالى محيطٌ بالظّالمين، مصاحِبٌ لأعمالهم الظّالمة، لا ينفكّ عنهم ولا عنها قطُّ، وفي ذلك تهديدٌ شديد ووعيد أكيد لليهود الظّالمين، الزّاعمين (أنَّهم أولياء لله من دون النّاس)، والله تعالى أعلم.

معنى (أل) في (الظّالمين)، ولطيفةُ إعادةِ وصْفِهم بالظُّلم:

ظـلـمُ الـيـهـودِ خـاصَّـةً وظـلـمُ الـظّـالمين عـامَّـةً محلٌّ سخطِ الله تعالى وعقوبتِه

(أل) في (الظّالمين) لتعريف العهدِ الذِّكريِّ؛ لأنَّ الحديثَ عن اليهود؛ فالمعنى: أنَّ الله تعالى عليمٌ "بهم، وإيثارُ الإظهارِ على الإضمار لِذَمِّهم، والتَّسجيلِ عليهم بأنَّهم ظالمون في كلِّ ما يَأتون وما يَذَرون من الأمور، الَّتي مِن جملتها ادِّعاءُ ما هم عنه بمعزلٍ"[2].

ويجوزُ أن تكونَ (أل) معرِّفةً للجنس، وحينئذٍ تكونُ لفظةُ (الظّالمين) في موضعها، وليستْ في موضعِ الضَّمير؛ فـ(أل) في (الظّالمين) تتَّسِعُ دلالتُها لِتستوعبَ كلَّ الظّالمين "على العموم، وهؤلاء اليهودُ داخلون فيهم دخولًا أوَّليًّا"[3]، ففيها عمومُ الاستغراقِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 28/ 218.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 8/ 248.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 269.

والإحاطة، وإنَّ عِلمَ الله تعالى مُحيطٌ بجميع (الظّالمين) مِن اليهود وغيرِهم، ولا يُفلِتُ مِن عذابه ظالمٌ.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّمنّي والرَّجاء:

التَّمنّي يصاحبُه الكسل، ولا يَسلُكُ صاحبُه طريقَ الجِدِّ، والرَّجاءُ على الضِّدِّ من ذلك. ومن الوجهةِ اللُّغويَّةِ فإنَّ أداةَ الرَّجاء (لعلَّ)، وأداةَ التَّمنّي (ليت)، كما أنَّ الرَّجاء يفيدُ إمكانَ الوقوعِ، بخلافِ التَّمنّي الَّذي يفيد تعذُّرَ الوقوعِ أو استحالتَهُ[1].

التَّمنّي يصاحبُهُ الكسل، ويتعذَّرُ أو يستحيلُ، والرَّجاءُ ممكنٌ، ويصاحبُه الجِدّ

(1) عدد من المختصين، نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم: 5/ 2022.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الحادي والستون،
سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 61 ، 814 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-645-72-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 61 : المجلد الحادي والستون، سورة الحَشر من الآية 11 إلى سورة المُنافِقُونَ الآية 04.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-645-72-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6860354 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"